

الفكر المغربي في مواجهة الضغط الأمبريالي ابتداء من أواخر القرن الثامن عشر

محمد زبير

كلية الآداب — الرباط

كل ايدولوجية إصلاحية أو ثورية ترتبط بتحولات فكرية. وعلى قدر حجم تلك التحولات يعظم الإصلاح أو يتضاءل ويكون ذا مردودية حقيقية أو يقتصر على التموه والبهرجة. ولذلك، فنحن إذا أردنا أن نبحث عن نشأة الفكرة الإصلاحية في المغرب، فلا بد من أن نربطها بالتطور الذي اجتاز منه الفكر المغربي قبيل القرن التاسع عشر. ذلك أننا نلمس، بالفعل، من خلال الأحداث ومواقف الأشخاص أن الفكر المغربي بدأ يتحرك ويتسلح بشيء من الوعي وينحو بخطوات لا تخلو من جرأة في اتجاه بعض التغيير والتجديد، لكن ليس في المجال الفكري البحت، ولا في المجال الثقافي ولا في أوساط العلماء، وإنما في مستوى المسؤوليات العليا التي كانت تجابه المصاعب الداخلية والخارجية.

ومهما يكن، فإن دراسة الفكر المغربي في الفترة السابقة للربع الأخير من القرن 19 ضرورية لفهم كل التطورات التي ستأتي من بعد، لأن عامل الاتصال والاستمرار بين المرحلتين أقوى من عامل التباين والانفصال، برغم كل التطورات التاريخية التي توالى بسرعة غير معتادة. فلنعد، إذن، إلى تلك المرحلة، مرحلة النشوء التي قد لا تظهر فيها كل الأشياء بكامل الوضوح.

نبدأ، إذن، بآخر منعطف عرفه تاريخ الفكر المغربي قبل ذلك العصر. كل القرائن تبرز أن ذلك المنعطف الكبير يقع في النصف الثاني من القرن 18. وهي الفترة التي تقترب بعده أحد سلاطين الدولة العلوية المرموقين : محمد بن عبد الله العلوي [1171 — 1204/1757 — 1789] الذي كان يتميز بعدة مزايا من

جملتها العلم والاهتمام بالشؤون الثقافية. وليس من موضوعنا أن نتحدث عن سياسته في هذا الميدان الذي يتطلب بحثا خاصا ومطولا⁽¹⁾. وإنما نشير فقط للأحداث الأساسية التي تجعل من عهد هذا العاهل منعطفًا كبيرًا في تاريخ الفكر المغربي. ولنبادر إلى تسجيل ثلاثة أحداث تستلفت النظر، بصورة خاصة :

1. الاتجاه السلفي الذي سار فيه محمد بن عبد الله لمواجهة طموح الطوائف الصوفية التي كان البعض منها قائما على تنظيمات قوية وتمتع بنفوذ واسع في الأقاليم. وكانت بعض تلك الطوائف أو «الزوايا» حسب التسمية المتداولة في المغرب تمارس نشاطا سياسيا من وراء واجهة نشاطها الديني والروحي وتتطلع للمزيد من النفوذ وتولي الحكم إذا ما واتها الحظوظ⁽²⁾. ولذلك، فإن الدولة القائمة كانت ترقب نشاطها بحذر وتقمعها إن شاهدهت منها انحرافا سياسيا وتحاول، من جهة أخرى، أن تستدرجها عن طريق الاسترضاء لخدمتها واستغلال نفوذها المعنوي⁽³⁾.

إلا أن محمد بن عبد الله وجد سلاحا جديدا لردعها وتقليص نفوذها أمام الأوساط العلمية والعامة، على حد سواء، ألا وهو مواجهتها على صعيد الفكر الديني. فالزاوية تقوم على أساس فكري يتمثل في الدعوة الصوفية، ولمواجهة تلك الدعوة وما تجر إليه من مضاعفات سياسية، استعمل من جهته الحجة الدينية المتمثلة في الدعوة السلفية. وهي حجة لها ثقلها في الميزان ؛ إذ تعود بالمسلمين إلى تراث السلف الصالح وتستنكر ما دون ذلك بصفته بدعة⁽⁴⁾.

ولئن كانت الدعوة السلفية قديمة في المغرب، فإنها في السياق العام الذي كانت تحتاز منه البلاد آنذاك اكتست صبغة تجديدية، وتضمنت معاني إصلاحية ولربما ثورية لم تكن تتجه إليها الأفكار من قبل. إنها تعني دعوة ملحّة لتغيير عقلية سادت

(1) عبد الرحمن بن زيدان، إتحاف أعلام الناس، ج 3، ص. 148 — 363 وتتضمن ترجمة مطولة لمحمد بن عبد الله.

(2) هذا الاتجاه ظهر منذ القرن 17 مع الزاوية الدلائية والسملالية وغيرها وفي هاته الفترة بالذات حدث الاصطدام مع الزاوية الشرقاوية. انظر : الاستقصا، ج 8، ص. 59.

(3) كما حصل للزاوية الوزانية والناصرية والدرقاوية في بعض الفترات التاريخية.

(4) ابن زيدان، ن.م، ص. 188.

في المجتمع المغربي طوال قرون(5).

2. إنشاء ميناء الصويرة : فتح بابا ولو صغيرة على العالم الأوروبي المتمدن الذي ظل المغرب يجهله أو يتجاهله لأسباب غير معقولة ولا مقبولة. وأصبح هذا الميناء يرمز إلى الدور الذي سيصبح منوطا بالساحل الأطلسي ؛ إذ سيتحول إليه مركز الثقل في كل الميادين الاقتصادية والديموغرافية والسياسية(6). وهو حدث يبرز تطورا لا تراجع فيه، تطورا سيظهر أثره على الحياة الفكرية في المدى البعيد، وإن كان في الفترة الأولى سيثير ردود فعل معاكسة ذات طابع محافظ. وطبيعي أن ينجم عن الاحتكاك اليومي بالأوروبيين المتواردين على المدن الساحلية اتصالات إنسانية متنوعة، ولكنها سواء دفعت إلى الصداقة أم أثارت العداوة، أوجدت المجال الطبيعي للاتصال الحضاري. لكن إنشاء ميناء الصويرة كان يحمل، في نفس الوقت، طموحا آخر لا يقل أهمية وهو أنه كان يهدف إلى أن يعيد للمغرب دوره في الاقتصاد العالمي بربط أفريقيا السوداء مع العالم الخارجي عن طريق المغرب، بإنعاش تجارة القوافل عبر الصحراء التي كان لها عصرها الذهبي في القرون الوسطى. وبرغم التطورات التي حدثت في المواصلات العالمية، فإن الفكرة، عند التجربة والممارسة، برهنت على أنها ما زالت قابلة للتحقيق(7).

3. السياسة الإسلامية : حاول محمد بن عبد الله، وربما لأول مرة في تاريخ المغرب، أن يقيم علاقات منتظمة مع الدولة العثمانية. وكانت له مواقف تضامن معها في حروبها مع روسيا القيصرية. واهتم بتحرير أسرى المسلمين في البلاد الأروبية. وكان، بالجملة، يفكر في إخراج المغرب من عزلته وتقويته إزاء الدولة الأروبية القوية، عن طريق توثيق العلاقات وتوسيعها مع الدول الإسلامية. وتلك مبادرات جديدة من نوعها، لأن الدول الإسلامية — وهذا من مظاهر تدهورها

(5) بين أحمد أمين في كتابه زعماء الإصلاح في العصر الحديث (القاهرة) الصيغة الجديدة التي أخذت تكتسبها فكرة السلفية ابتداء من الدعوة الوهابية. وانظر أيضا :

G. Drague, *Esquisse d'histoire religieuse du Maroc*, Paris, Peqronnek, p. 85

(6) زهرة طاموح، *Le Maroc et le Soudan au XIX^e siècle (1830-1894)*

(7) ن.م.

وانحطاطها — قلما فكرت في ربط الصلات فيما بينها وتنظيم صفوفها لمواجهة الأخطار الخارجية⁽⁸⁾.

ومهما يكن، فإن المحاولات التي قام بها محمد بن عبد الله في هذا الصدد مهدت للاتصالات التي ستتراد أثناء القرن التاسع عشر بين المغرب وأقطار الشرق العربي وأبرزت فكرة كبيرة ظلت إلى اليوم تحرك الشعوب الإسلامية وهي البحث عن منهاج صحيح للتضامن فيما بينها حتى تدافع عن كيائها وتحتل مكانها في عالم اليوم المبني على منطق القوة.

هاته الأحداث الثلاثة اخترناها من بين الأحداث الكثيرة الأخرى التي حفل بها الربع الأخير من القرن الثامن عشر لأنها تشهد بصورة ملموسة نشوء العوامل الثلاثة التي سيتضاعف أثرها على الفكر المغربي أثناء القرن التاسع عشر وفي النصف الأول من القرن العشرين. فالاتجاهات التي أصبحت منذ ذلك العهد محتومة على الفكر المغربي هي :

أ) التفتح على أوروبا وحضارتها

ب) البحث عن الإسلام الصحيح بين الممارسة الفعلية للدين لدى جمهور المؤمنين في عضويتهم، وبين الرجوع إلى المصادر والأصول.

ج) الاتصال الواعي والمستمر بالشرق العربي والإسلامي والاطلاع على أحواله ومشاكله مع تزايد الشعور بالارتباط به.

لكن، هل صادفت تلك الاتجاهات في حين ظهورها بنية الاستقبال داخل المجتمع المغربي؟ فالسياسة الرسمية خطت خطوات في اتجاه تطوري وإصلاحى واضح، فلم ياترى لم تؤت أكلها؟ ولم ظلت تطفو فوق سطح الحياة المجتمعية دون أن تحدث الاهتزازات التي كانت منتظرة منها؟ ولماذا لم تصادف بين المؤرخين والعلماء المعاصرين من انتبه لأهميتها وفهم مغزاها؟

والجواب يبرز في الحين في تناقض خفي ولكنه عميق بين الدولة وبين القيادات الاجتماعية التقليدية التي يهمنها منها الآن القيادات الفكرية. فالشعب أو

(8) أبو القاسم الزباني، الترجمة الكبرى، الرباط، 1967.

— بالأحرى — العامة كانت تخضع لقيادات فكرية ألفت أن تنظر إليها بنظرة التبجيل والتقديس. وقد ظلت تلك القيادات بمعزل عن السياسة ومقتضياتها بعيدة عن الواقع العالمي والوطني، تعيش فكريا في عصر بعيد عن عصرها الحقيقي، مما جعلها تشكل عرقلة أمام التطور بدل أن تفسح له المجال. وهذا ما برز مع حلول القرن التاسع عشر.

ففي بداية ذلك القرن كان المغرب يسير قدما في طريق التدهور العام الذي سيؤدي به إلى ضياع الاستقلال والوقوع تحت السيطرة الأجنبية. وبرغم كونه لم يستطع أن يسترجع منذ القرن السادس عشر المركز الممتاز الذي كان يتمتع به في عهد الموحدين تمكن، مع ذلك، من المحافظة على كيانه كدولة مستقلة، ولم يصبه ما أصاب الأقطار المغربية الأخرى. وقد برهن بالفعل، خلال قرون الانحطاط المنصرمة على نشاط وحيوية في الدفاع عن سيادته وسلامة ترابه سواء ضد المحاولات العثمانية الآتية من حدوده الشرقية أو ضد غارات البرتغال وإسبانيا وغيرهما. وأمكنه، بالرغم من ضعفه وتفوق خصومه، أن يحرز في بعض الأحيان انتصارات باهرة، كما رأينا في معركة وادي المخازن وفي المعارك التي جرت في عهد مولاي إسماعيل لاسترجاع بعض الثغور المهمة مثل طنجة والعرائش. وفي بداية القرن التاسع عشر، كانت كل أجزاء المغرب محررة ما عدا مدينتي سبتة ومليلية اللتين عجزت كل الحكومات المتعاقبة عن تخليصهما من الاحتلال الأجنبي.

إلا أن هذه الحيوية التي برهن عنها المغرب لم تتجاوز الميدان العسكري. ففي الجوانب الأخرى من حياة الأمة المغربية لم تظهر أي بوادر للانتعاش والنهوض. بل كان الجمود والتواكل والإهمال هو المظهر السائد. وسادت في البلاد عقلية تميل إلى الانطواء ونبذ كل ما هو أجنبي ولو كان نافعا وفيه حياة الأمة. وكان العلماء ورجال الدين على رأس من يغذون عقلية الجمود بفتاويهم وأفكارهم التي كانوا يبنونها في العامة، دون أن يحاولوا مراجعة نصوصهم والبحث عن فلسفة الدعوة الإسلامية في حقيقتها⁽⁹⁾.

وبسبب موقف الجمود، لم يستطع المغرب، برغم علاقاته العريقة مع عدد من

(9) ع. كُتون، النبوغ المغربي، بيروت، 1975، 1/279 — 321.

الدول الأوروبية، وبرغم موقعه الجغرافي، أن يستفيد من تجاربها وحضارتها وعلمها. وظل ذلك هو ديدنه إلى أن فرضت عليه الحماية في سنة 1912. ونجمت عن هذا التدهور العام أزمات في حياة البلاد وتسيير شؤون الدولة. ولا شك أن أعنف تلك الأزمات هي التي اجتازها المغرب طوال القرن التاسع عشر. وهي التي تجلّت في عجز الدولة المتفاقم عن مواجهة المشاكل الداخلية والخارجية ومعالجتها بالأساليب الناجعة، ذلك العجز الذي ظهر جليا في تردها في القيام بالإصلاحات الحاسمة والجذرية التي أصبحت البلاد متوقفة عليها⁽¹⁰⁾.

لكن من المسؤول عن عجز الدولة وضعفها؟ هل هم رجالها وقادتها؟ بكل موضوعية، يجب أن نجتنب كل تسرع في الحكم كما يحدث عادة. فنحن لو وضعنا كل رجال المغرب المتنورين في النصف الثاني من القرن الثامن عشر نصب أعيننا لنقارن فيما بينهم، سنجد أن أنبهم وأذكاهم وأجرأهم على النقد الذاتي والإصلاح هو السلطان محمد بن عبد الله، كما يتبين ذلك من ترجمته وتبع سياسته. ولكن ماذا كان في طوقه أن يصنع، إذا كان التوجيه العام داخل المجتمع مبنيا على المحافظة والجمود وإذا كانت الدولة غير متوفرة على مؤسسات وبنيات قادرة على الحركة والتجدد؟

لقد أصبحت فكرة الإصلاح مطروحة على المغرب منذ ذلك العهد بصورة دائمة، إن على مستوى الدولة أو على مستوى القيادات الفكرية والروحية في المجتمع أو لدى الأجانب الذين أصبح اهتمامهم بالمغرب يتزايد ويعظم مع تزايد أطماعهم. ولم يكن كل فريق ينظر إلى الإصلاح بنفس النظرة أو تدفعه إليه نفس الدوافع. بل كان هنالك تناقض، إن لم نقل تعارض، بين المواقف والأفكار. ولنركز بحثنا في القيادات الفكرية والروحية التي كانت موجودة آنذاك بالمغرب. فإلى أي حد كان رجال الفكر المغاربة في النصف الثاني من القرن الثامن عشر واعين بفكرة الإصلاح وضرورتها؟ ومن هم العلماء الذين كانوا يتمنون التغيير والذين كانوا يعارضون في شأنه؟

من الممكن أن نصنف مواقف العلماء إلى ثلاثة أنواع :

(10) مجلة كلية الآداب.

- (1) موقف السكوت واللامبالاة واللاوعي.
- (2) موقف الاهتمام ومسايرة فكرة التغيير في اعتدال واحتراز.
- (3) موقف المحافظة المعادية لكل تغيير عميق، أو بعبارة اللطف، الموقف المقتصر على الدفاع عن التراث.

ولقد عاش هذا الجيل الأول في عصر كان يسوده الاستقرار نسبيا لأنه يقترن مع عصر السلطان محمد بن عبد الله (1757 - 1790) الذي يعد، كما رأينا، من أحسن رجال الأسرة العلوية وجزء من عهد السلطان المولى سليمان (1792 - 1822) الذي، برغم بعض جوانب الضعف، كان هو أيضا من شخصياتها البارزة. لكن المعطيات الإيجابية التي انطلق فيها هذا العهد كله لم تساعد الأقدار، كما رأينا من قبل، على أن تؤتي أكلها في خاتمة المطاف. فبالإضافة إلى الأخطاء البشرية، توالى على المغرب سبع سنوات عجاف من 1776 إلى 1782 واقتربت نهاية القرن بطاعون فتاك تبادت أضراره طوال سنوات ثلاث (1797 - 1800). فكان انهيار ديموغرافي أدى إلى ضياع أكثر من ثلث سكان المغرب⁽¹¹⁾.

والظاهرة الأساسية التي غلبت على المجتمع كانت هي المزيد من تقليص مكانة الفرد وتهميشها تجاه القوات المسيطرة، بحكم الشرع أو بحكم الأمر الواقع من عصبية محلية و زاوية و إقطاعية ناشئة. وعلى رأس الكل، بالطبع، الدولة الشرعية المتمثلة في المخزن : فقد مرت فترات أثناء القرنين 16 و 17 كان الفرد فيها يستطيع أن يعبر أكثر عن شخصيته ويعتز برأيه ويدافع عنه جهارا ؛ ورأينا صوفية وعلماء وفقهاء يتخذون المواقف الجريئة ويناقشون الحكام ويصارحونهم⁽¹²⁾. لكن، في هاته الفترة التي تعيننا أي النصف الثاني من القرن الثامن عشر، كانت الظاهرة التي غلبت على المغرب واستشرى أثرها هي الخوف الكبير، الناشئ عن عدة عوامل تأتي في أولها الأزمة الكبرى التي أضعفت السلطة المركزية غداة وفاة المولى إسماعيل، وتحولت إلى حرب مدنية أحرقت الأخضر باليابس. فكان إزهاق الأرواح

(11) J. Brignon, A. Amine, B. Boutaleb..., *Histoire du Maroc*, Hatier, Paris, 1967, pp. 270-273.

(12) على سبيل المثال : مراسلة الحاحي للسلطان زيدان السعدي ومراسلة الحسن اليوسي للمولى إسماعيل.

البريئة بالحواضر والبوادي من المشاهد المعتادة التي يمس الناس من إزاحتها وإنهائها. وكانت للأزمة عواقبها التي استمرت حتى بعد انتهائها على المستوى السياسي⁽¹³⁾.

ودون أن نطيل الحديث عنها، نسجل أن إحدى عواقبها التي دامت وتغلغل أثرها في نفسية سكان المدن، بالخصوص، كانت هي الخوف : الخوف من سكان البوادي، الخوف من الجيش، الخوف من السلطان، الخوف من الولاة المحليين، الخوف من المجاعة، الخوف من الأوبئة، إلخ... وقد أصبح المؤرخون في يومنا هذا يعيرون اهتماماً متزايداً لمثل هاته العوامل النفسية الجماعية التي يرون فيها عنصراً أساسياً يحسب له حسابه في تفسير عدد من الأحداث والمواقف الفكرية. فالخوف يمكنه أن يكون مصدراً لإيديولوجية شاملة يعيش بها الناس ويتصورون المجتمع وعلاقته بالدولة وسلم القيم الذي يجب أن يسود فيه، إلخ⁽¹⁴⁾.

كان أمام الفكر المغربي، إذن، مشبطات وعراقيل، إن لم نقل سدود منيعة. فالعالم أو المفكر كفرد من أفراد ذلك المجتمع كان يصعب عليه أن يفكر بكامل حريته. بل كان لابد له من أن يرتبط بتلك القوات الاجتماعية، أو بإحداها على الأقل. فهو إما يرتكز على علاقته بالخزن أو على ارتباطه بإحدى الزوايا أو بإحدى الأسر الكبرى أو بإحدى الإقطاعيات المحلية. وكانت تلك القوات حريصة، بالطبع، على تبعيته لأنها تستفيد منها وتستغلها في دعم كيانها. وهاته النقطة ربما كانت تحتاج إلى تحليل أوسع. وإنما نكتفي هنا بالإشارة إلى كون تلك القوات، بالإضافة إلى ما ذكرنا، تقوم بدور مزدوج بالنسبة للعالم :

— دور المراقبة : فهي تراقب سلوكه وكل ما يصدر عنه من أفكار في أقواله أو كتاباته.

— دور الحماية : إنها تمنحه الحماية المادية والمعنوية مادام يسير في خطها.

فهي، على أي حال — في مجتمع لم يكن يؤمن بحرية الفكر — تحدد للعالم، للمفكر المجال الذي يمكنه أن يتحرك فيه، وتقدم له بعض الضمانات التي تجعله

(13) ابن زيدان، ن.م.

(14) H. Focillon, «Le problème des terreurs» in *l'An. Mil* Paris, Armand Colin, 1952, pp. 39-64.
M. Foucault, *Folie et déraison. Histoire de la folie à l'âge classique*, Paris, Plon, 1961.

يزاول مهمته بشيء من الاطمئنان والاستقرار. وبما أن تلك القوات، برغم تناقضاتها وصراعاتها، كانت تلتقي كلها حول تراث مشترك هو الدين بتصور روتيني وما ينشأ عنه من علوم مختلفة، فيمكن القول إن التوجيه العام الذي كانت تخططه للحياة الفكرية كان يرتكز، بوجه عام، على مبدأ المحافظة، أي المبدأ الذي يدعو إلى التشبث بالتراث والتخلي عن كل نقد واعتراض يمس به. وطبعاً، لم يكن يدخل في ذلك التصور للدين فكرة الدعوة الحية المتجددة ولا فكرة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر بالعودة إلى المبادئ الأولى والتعاليم الأساسية في الإسلام.

طبعاً، كانت هنالك اختلافات من جهة إلى أخرى؛ ولكنها اختلافات لا تمس بالجوهر، وإنما ببعض الجزئيات والتصورات. ومع ذلك، فلا يصح أن نتغافل عنها، لأنها، نظراً للظرف التاريخي، ربما اكتست بعض الأهمية. كما أنه لا بد من أن نشير إلى أن المفكرين الذين نبغوا في هذا الجيل لم يكونوا كلهم من نسق واحد، بل هم أصناف وأنواع. فكانت من بينهم مثلاً طائفة لم تكن تقبل الانسياق والمسيرة بل كانت تتميز بروح الاعتراض والنقد. وهؤلاء ربما كانوا هم الذين ساهموا بمقدار معين في تطور الفكر المغربي.

ولنتحدث عن هذا الجيل، يجب، بادئ ذي بدء، أن نخرج ولو بسرعة على بعض أساتذته. ووقد توفي أكثرهم قبل 1775. فهنالك تيارات فكرية سادت في الربع الأخير من هذا القرن وترجع أصولها إلى ما قبل ذلك التاريخ بكثير. ولعل أحسن أستاذ كان يمكن أن يتم على يده تجديد فعلي في الفكر المغربي هو الحسن اليوسي الذي عاش في القرن السابع عشر وبرهن على تحرره من الجمود والتقليد وقدرته على الاجتهاد والخروج من الأفق الشخصي والفردى إلى الأفق العام والجماعي بحيث قدم مثال العالم المسلم الذي يقوم بواجب النصيحة للسلطان وللأمة، بما ينبغي من الصراحة والإخلاص. لكنه، برغم كثرة تلاميذه، فإنه كان نسيج وحده وفريداً من نوعه، فلم ينبج تلاميذ قادرين على مواصلة خطته، بحيث انطفأت شعلته معه⁽¹⁵⁾. وربما جاز لنا أن نلحق به تيار بعض الشيوخ

(15) للتعريف بالحسن اليوسي لا نجد خيراً من الكتاب النير الذي حرره عنه بيرك J. Berque.

المجتهدين مثل : ابن زكري (ت 1144/1731-32) الذي دافع عن فكرة الإخاء والمساواة بين سائر المسلمين، دون النظر إلى أصولهم ؛ وابن رحال المعداني (ت 1140/1728) الذي كان فقيها كبيرا، متجها في أبحاثه إلى القضايا الاجتماعية، قضايا الطبقة العاملة، وابن الرغاي (ت 1150/1737) الذي تميز كصاحب إفتاء، وعرف بروح النقد، والتماق (ت 1151/1738) من علماء فاس الورعين، عرف بمباحثه الفقهية واهتمامه بالحديث ؛ وأحمد بن مبارك السجلماسي (ت 1156/1743) الذي كان أستاذا كبيرا، متبحرا في العلوم التقليدية، مع استعمال الرأي والنظر ؛ وعبد الكريم اليازغي (1199/1785) الذي كان صاحب إفتاء ؛ وأحمد بن محمد الورزازي (ت 1179/1765) الذي كان فقيها محدثا ومشاركا، وتتميز خاصة برفضه للتقليد. ولعله يذكرنا من بعض النواحي باليوسي⁽¹⁶⁾.

أولئك بعض العلماء الذين يمكن أن ندخلهم في تيار التعقل والتفتح، لأنهم تصدوا للإفتاء، وأحيانا للاجتihad، وكان لهم رأي وموقف في بعض القضايا. لكن هاته الصفات التي تميزوا بها يجب أن نضعها في إطار النسبية، بحيث لا يمكننا أن نعتبرهم لا كعلماء ثوريين أو مجددين أو حتى مصلحين، وإنما كانوا أصحاب نزعة ورأي ويكتفون بتشقيق الباب للإطلال على ما وراءها دون أن يجتازوا عتبتها. ولعل الذي كان يخوفهم ويقطع عليهم الطريق هو وجود تيار أقوى وأكثر رسوخا في المجتمع وتمكنا من السلطة المعنوية والمادية، وأعني به التيار المحافظ، تيار حماة التراث.

في هذا التيار، نجد الغالبية العظمى من العلماء والمتصوفة الذين لم يكن يهمهم الإصلاح ولا كانوا شاعرين بالتطور وبمسيرة التاريخ، وإنما الذي كان يهمهم هو المحافظة على ما تلقوه من تراث عن أسلافهم يستندون إليه في تفكيرهم وتأليفهم وتدريسهم. ولعل العديد منهم اختار هاته الطريق السهلة خوفا من القيل والقال وإيثارا للسلامة. فكأنهم يعيشون في عالم مغلق بدون نوافذ. ومن بين الذين ينتمون لهذا التيار نذكر، على سبيل المثال :

(16) ع. كُثُون، النبوغ ؛ العباس بن إبراهيم، الإعلام.

Lévy-Provençal, *Les historiens des Chorfa*, Paris, 1922.

— محمد بن عبد السلام بناني (ت 1163/1750)، وهو من كبار أساتذة القرويين في علوم الفقه؛ إذ كان يدرس مختصر الشيخ خليل. وكان يحضره جمهور كبير من الطلبة. وقد ترك عدة تأليف معظمها شروح لنصوص تقليدية. فهو من كبار الوعاة للعلم الموروث والمتناقل بين الأجيال⁽¹⁷⁾.

— محمد بن قاسم جسوس (1183/1769)، شيخ الجماعة في وقته بالقرويين وعالم كبير في الفقه والتوحيد والسيرة⁽¹⁸⁾.

— إدريس العراقي (1183/1769)، كانت له شهرة كبيرة في علم الحديث. فكان يقارن بالسيوطي وابن حجر، بحث أصبح مرجعا لمعاصريه وله عدة تأليف⁽¹⁹⁾.

— عبد المجيد الزبادي (1163/1750)، كان له ضلع كبير في علوم اللغة والأدب والتصوف، فكان من بين الذين حافظوا على التراث في هاته الميادين ولقنوها للجيل اللاحق⁽²⁰⁾.

— محمد بن الطيب الشرقي (1170/1756)، من كبار علماء اللغة في عصره. وعليه تتلمذ شارح القاموس المشهور الشيخ مرتضى الزبيدي. وقد رحل إلى الشرق وتوفي في المدينة المنورة. وتأليفه تربو على الخمسين⁽²¹⁾.

— أحمد الغربي الرباطي (1178/1764)، من أكابر علماء المغرب في وقته. تكون على يد علماء من المغرب والمشرق. وكانت له مشاركة في العلوم الإسلامية مع اهتمام خاص بالحديث. لم يترك تأليف، وإنما كان أستاذا لطائفة كبيرة من علماء المغرب⁽²²⁾.

— أحمد بن عاشر الحافي السلاوي (1163/1750)، شخصية كبيرة بمدينة

(17) كُنُون، ن.م.، ص. 300؛ الحجوي، الفكر السامي، 122/4.

(18) الحجوي، الفكر السامي، 124/4.

(19) كُنُون، ن.م.، ص. 302.

(20) القادري، نشر المثاني، الرباط، 1986، 78/4.

(21) ع. كُنُون، النبوغ، 301/1.

(22) عبد الحى الكتاني، فهرس الفهارس، بيروت، 1982، ص. 119.

سلا. له شيوخ متعددون وثقافة متنوعة. وترك عدة مؤلفات من بينها ديوان شعر وفهرسان وتراجم لبعض كبار الصوفية⁽²³⁾.

— محمد بن حجي زنيير (ت 1194/1780)، قاضي سلا : علامة ومحدث وشاعر. اشتهر بتأليفه في شرح الهمزية⁽²⁴⁾.

والقائمة مازالت طويلة من صنف هؤلاء العلماء الذين يتلخص موقفهم في :

— حفظ المتون وقراءة التأليف المتعمدة مثل الموطأ ومختصر الشيخ خليل بشروحه ورسالة ابن أبي زيد القيرواني وألفية ابن مالك ولامية الأفعال وما شابهها من التأليف التي أقرها السلف من العلماء.

— اجتناب الخوض في أي موضوع يجبر إلى المناقشة وإبداء الرأي الشخصي والاجتهاد، خوفا من الانتقاد والانهزام بالانحراف والابتداع. أي إنهم علماء يرفضون أن يتحملوا أي مسؤولية فكرية في دراسة القضايا المعروضة عليهم، وخصوصا قضايا الوقت.

— اتخاذ العلم وسيلة للارتزاق ونيل الجاه والتقرب من العامة ومن السلطان في آن واحد⁽²⁵⁾.

وهاته الملاحظات لا تطعن في كفاءتهم كأهل علم وإطلاع. ولكن الذي يجب الانتباه إليه بالدرجة الأولى هو أن هذا التيار المحافظ كان يضم الأغلبية الكبرى من علماء المغرب مما جعله يقف في وجه كل محاولة للاجتهاد والإصلاح، وبالتالي يعمل على تجميد الفكر المغربي وتجميد العقلية السائدة في عامة الشعب.

وربما ألحقنا بهذا التيار تيارا ثالثا أشد إمعانا في المحافظة، بل إنه يستحق أن يدعى تيارا رجعيا، لأنه لا يمنح الأولوية للمحافظة على التراث العلمي، بل إن الذي يسعى إليه بالدرجة الأولى هو التصدي لكل موقف يتسم بشيء من العقلانية

(23) E Lévy-Provençal, *Les historiens des Chorfa*, Paris, 1922, p. 313.

محمد بن علي الدكالي، الإتحاف الوجيز، ص. 115.

(24) الدكالي، م.س، ص. 118.

(25) تراجم كثير من العلماء تعكس حرصهم على نيل الخطوة بالتقرب من السلطان، والحصول على صلاته، وعلى الاستفادة من ظواهر التوفير والاحترام.

لناهضته وفتح الباب لنشر العقلية الخرافية أو اللاعقلانية. وينطلق ذلك من الحديث عن مناقب الأولياء والمبالغة في الإشادة بالكرامات وإطراء المجاذيب والدعوة إلى التخلي عن العمل والتواكل، وإشاعة الاعتقاد بأن الرزق يأتي من الله بدون سعي ولا تسبب. وأكثر هذا ربما كان صادرا عن شطحات بعض رجال الزوايا أو بعض المتعاطين للشعوذة. وقد يصعب في بعض الأحيان تمييز المتصوف عن المشعوذ، لأن الثاني ربما تزيا بزِي التقوى، وأدلى بخطاب كله إيمان وتعلق بالله(26). والشعوذة في تاريخ المجتمع المغربي موضوع كبير ما زال في حاجة إلى المزيد من البحث والدراسة. لكن إذا علمنا كيف أن هذا التيار الرجعي والظلامي كان له أكبر الشيوخ في أوساط العامة التي يغلب عليها الجهل والأمية، فهمنا كيف أن دوافع التحرك والإصلاح ما كانت آنذاك لتأتي من القاعدة الشعبية(27).

تلك نظرة خاطفة على القيادات الفكرية التي كانت موجودة بالمغرب قبيل القرن التاسع عشر، أي قبيل المرحلة الخطيرة من تاريخه التي كان أحوج ما يكون فيها لقادة فكريين واعين ومتبصرين. لكن الواقع، كما يتبين من تصفح كتاب الأستاذ محمد المنوني بإمعان، يبرز فراغا مخيفا وبعدا عن إدراك الواقع وفهمه ؛ ذلك أن الجيل الذي نشأ مع القرن التاسع عشر سار على نفس الوتيرة. فلم يغير أي شيء من سلوكه، رغم أن الأحوال تغيرت حواليه(28).

فقد عرف المغرب منعطفات خطيرة في تاريخه أثناء القرن التاسع عشر. فكان نزول فرنسا بالجزائر سنة 1830، ثم وقع الهجوم الفرنسي على حدود المغرب الشرقية سنة 1844، فاتحا بذلك مسلسلا من الضغط الفرنسي المتواصل، على المستوى العسكري والسياسي، ثم جاء الهجوم الإسباني على تطوان في سنة 1860 ليتمتع تعرية المغرب وإبراز عجز الدولة وحيرة الشعب الذي لم يجد وراءه القيادة المناسبة لمواجهة الهجوم الاستعماري الذي لم يكن هجوما عسكريا حسب النمط

(26) كتب المناقب مثل سلوة الأنفاس وغيره تقدم لنا نماذج من الأشخاص الذين يحار الباحث في تصنيفهم هل هم متصوفون أم مشعوذون.

(27) عبد اللطيف الشاذلي، التصوف والمجتمع، سلا، 1989.

(28) قدم الأستاذ المنوني جملة من الاقتراحات الإصلاحية الصادرة عن بعض العلماء المغاربة في القرن التاسع عشر. ولكن، عند تصفحها، يظهر طابعها الجزئي والسطحي، وبعدها عن إدراك المشكل القائم في كليته. انظر : مظاهر يقظة المغرب الحديث.

التقليدي، بل كان هجوما مخططا وموزعا على نطاقات مختلفة. فكان، في آن واحد، هجوما عسكريا وسياسيا واقتصاديا وعرقيا وقانونيا وماليا، إلخ.

ونحن، حينما نتحدث هنا عن غياب القيادة، لا نعني بذلك الدولة وحدها أو جهاز المخزن المغربي الذي حاول أن يقوم برد الفعل، ولو بوسائل ضعيفة، ولكننا نعني القيادة الفكرية، بالدرجة الأولى، التي تربي الشعب وتشيع الوعي في أوساطه، وتكون هي على اطلاع بالتطورات الجارية خارج الحدود وداخلها. وكل هذا كان يقتضي حدوث تطور في ذهنية الطبقة الفكرية. وهو ما لم يحدث، بحيث ظلت وضعية الجمود والخوف من أي اجتهاد سائدة. لذلك ؛ فإن الإطار الذي كان يعيش فيه الفكر المغربي لم يكن يدفع إلى الجرأة والمبادرة والتحرك، ولم يكن يترك مجالا لحرية المثقف والأستاذ والطالب والمؤلف، لأنه كان إطارا صلبا، له حدود واضحة ومعلومة يستحيل تخطيها.

والمغرب في هذا الوضع الفكري كما وصفناه إنما كان يواكب سائر المجتمعات العربية والإسلامية التي خضعت، منذ قرون، لمسلسل الانحطاط المتجسد في تركية الجمود والتقليد، ورفض كل تجديد من الداخل، وكل تفتح على الخارج (29). ولعل تلك الظاهرة تفاقمت في المغرب بصورة خاصة بسبب قربها من أوروبا واضطراره المستمر إلى مقاومة مؤامراتها الاستعمارية، مما حدا به إلى المزيد من العزلة والانطواء دفاعا عن شخصيته.

ظلت، إذن، مظاهر الفكر المغربي في أواخر القرن الثامن عشر والقرن التاسع عشر كما كانت، على وجه التقريب، منذ القرن السادس عشر، لم تمسسها يد التغيير في شيء، إذا لم نستثن رجلا مثل أبي علي اليوسي. حقا، ظهر أستاذة وشيوخ ومؤلفون، وبرزت تآليف كثيرة إلى الوجود، ولكن تلك الحركة، برغم مما بذل فيها من مجهود وذكاء، اقتصررت، في النهاية، على نقل العلوم والمعارف المتوارثة، مع مزيد من الشروح والإيضاحات.

(29) أحمد أمين، يوم الإسلام، القاهرة 1958. كتاب فيه نظرة شاملة عن التطورات التي مرّ منها المجتمع الإسلامي، وبالأخص في فترة الانحطاط وما سمي بالانبعاث.